(٣٥)

خبيب بن عدي في ساحة الموت

كانت أكفّ النساء والصبيان والشبّان تدفع خبيب بن عديّ إلى ساحة الموت ، لينتقموا من محمد في شخصه ، وليثأروا لقتلاهم في بدر بقتله . ورأت جموع قريش خبيبا يتقدم إلى خشبة الصلب ، وسمع الجميع صوته وهو يقول : إن شئتم أن تتركوني أركع ركعتين قبل مصرعي فافعلوا .

واستقبل خبيب الكعبة ، وصلى ركعتين ، وقال : والله لولا أن تظنوا أني أطلت الصلاة جزعا من الموت ، لاستكثرت من الصلاة . وبدأت الجموع تمثّل بخبيب حيّا ، فيقطعون من جسده القطعة تلو الأخرى وهم يقولون له : أتحب أن يكون محمد مكانك؟

فيقول والدماء تنزف منه: والله ما أحب أن أكون آمنا في أهلي وولدي ، وأن محمدا ﷺ يوخز بشوكة ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وبه ما لا يعد من ضربات السيوف وطعنات الرماح .

الحب والتضحية :

هذا الموقف الرائع الذي سجّل فيه البطل خبيب بن عدي ﷺ : حبه الكبير للنبي ﷺ ، واستسهاله الموت دفاعا عن العقيدة والمبدأ . هذا الموقف أثّر في شبان مكة تأثيرا كبيرا ، وعلّمهم أن الحياة الحقة جهاد في سبيل العقيدة حتى الموت .

وعلمهم أن الإيمان الراسخ يفعل الأعاجيب ، ويصنع المعجزات ، وعلمهم بصمت شديد أن الرجل الذي يحبه أصحابه كل هذا الحب إنما هو نبي مؤيد من السماء .

هذا الموقف الرائع له أثر عميق في الكثيرين من أهل مكة ، فهذا سعيد بن عامر الجُمَحيّ الذي شهد الموقف مع من شهد ، لم يغب خبيب عن خاطره لحظة ، وهو قائم يصلي ركعتيه الهادئتين المطمئنتين أمام خشبة الصلب .

ها هو سعيد يقوم في الملأ ويعلن براءته من آثام قريش وأوزارها ، وخلعه لأصنامها وأوثانها ودخوله في دين الله .

هكذا تفعل المواقف الكبيرة العظيمة : صمتها أبلغ من كل خطاب ، وقوتها تزلزل كل جبروت أو طغيان ، وإيمانها يهزم كل ضلال .

هكذا غرس النبي مبادئ الدين والعقيدة في نفوس أصحابه ، فهانت من أجلها نفوسهم وما يملكون في سبيل الله .

لقد كانت أواصر محبتهم لنبيهم عميقة في نفوسهم ، فاستسهلوا الموت من أجله .

التربية الحقة تبدأ من هنا ، من الحب العميق الذي يربط المربي بإخوانه ، فإذا تعمقت الأواصر ، تحولت الكلمات إلى أفعال ، وصارت التعاليم سلوكا ، وصار الخير عرفا يملأ الأجواء بعبقة عطره وشذاه .

هل تريد أن تعرف إذا كنت مربيا ناجحا ؟ فتش عن الحب في قلوب من تشرف على تربيتهم .

هكذا فعل المربي العظيم محمد ﷺ مع أصحابه ، وهكذا فليفعل المربون مع إخوانهم .

(٣٦)

يا أبا عبد الله، ما فعل شراد جملك؟

روى خوَّات بن جبير ﷺ قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ مر الظهران (مكان خارج مكة)، قال : فخرجت من خبائي فإذا نسوة يتحدثن فأعجبنني ، فرجعت فاستخرجت حلة (من أحسن ثيابي) فلبستها وجئت فجلست معهن. فخرج رسول الله ﷺ فقال : « أبا عبد الله» فلما رأيت رسول الله ﷺ هبته واختلطت (اضطربت) قلت : يا رسول الله ، جمل لي شرد (نفر واستعصى) وأنا أبتغي له قيدا ، فمضى واتبعته فألقى إليّ رداءه ودخل الأراك كأني أنظر إلى بياض متنه في خضرة الأراك ، فقضى حاجته وتوضأ وأقبل والماء يسيل من لحيته على صدره فقال : « أبا عبد الله ، ما فعل شراد جملك؟ » ثم ارتحلنا فجعل لا يلحقني في المسير إلا قال : « السلام عليك أبا عبد الله ما فعل شراد ذلك الجمل » ؟

فلما رأيت ذلك تعجلت إلى المدينة واجتنبت المسجد ومجالسة النبي ﷺ ، فلما طال ذلك تحينت ساعة خلوة المسجد فخرجت إلى المسجد وقمت أصلي ، وخرج رسول الله ﷺ من بعض حجره ، فجاء فصلى ركعتين خفيفتين ، وطولت رجاء أن يذهب ويدعني فقال : « طول أبا عبد الله ما شئت أن تطوّل فلست قائما حتى تنصرف » . فقلت في نفسي : والله لأعتذرن إلى رسول الله ﷺ ولأبرئن صدر رسول الله ﷺ فلما انصرف ، قال : « السلام عليك أبا عبد الله ما فعل شراد جملك » ؟ فقلت : والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت فقال : « رحمك الله » ثلاثا، ثم لم يعد لشيء مما كان [1] .

أمامنا لوحة ناطقة معبرة :

صحابي جليل رأى نسوة فأعجبنه ، فارتدى أحسن ثيابه وانضم إليهن ويراه رسول الله ﷺ في هذا المشهد المريب ، ويرتبك الرجل ويتعلل بحادث مختلق ، بأنه إنما خرج

---

(١) الطبرانى فى الكبير(٤/ ٢٠٣ ، ٢٠٤) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٤٠١) : « رواه الطبرانى من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير الجراح بن مخلد وهو ثقة » .

يبحث عن جمله الذي شرد ، ورسول الله (المبعوث رحمة للعالمين) لا يترك الرجل لضعفه ولا للإثم الذي ارتكبه فهو المربي العطوف الذي يهمه أن يبقى إخوانه أصفياء أتقياء بعيدين عن كل إثم ما ظهر منه وما بطن ، ولا يعنفه أو يشدد عليه ، بل يكنيه ويكرمه ، ويسأله فيما يشبه الدعابة : « أبا عبد الله ما فعل شراد جملك؟» .

إذا لحق به سأله ، وإذا رآه في المسجد سأله ، حتى أيقن صاحبنا أن لا منجاة له إلا بمصارحة النبي ﷺ والتخلص من هذا الذنب .

والكذب الذي لجأ إليه هذا الصحابي ليبرر فعلته ويتخلص من ورطته ، أشدّ في الحساب من الفعل نفسه ، فلم يكن من خلق أشد على رسول الله ﷺ من الكذب ، فإذا اطلع على شيء من ذلك عند أحد من أصحابه ، فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة .

ووظيفة النبي ﷺ المربي هنا ، أن يأخذ بيد الرجل ، يتعهده بالكلمة الطيبة ، والدعابة الرحيمة ، مع الإصرار على اقتلاع جذور الشر من نفسه بالتوجيه الكريم والدعاء الذي تنشرح له الصدور ، حتى يعلم أنه تاب إلى الله وأناب .

هكذا كان النبي المعلم ﷺ يعالج أمراض النفوس ، ويصبر على العلاج حتى يتأكد من الشفاء ، فالمجتمع الإسلامي يحتاج إلى بناة صادقين ربانيين ، والعضو الفاسد يفسد الصف ويفسد المجتمع ، وهكذا فليفعل المربون .

(٣٧)

أنس بن مالك يحفظ سرّ النبي ﷺ

لم يكد رسول الله ﷺ يستقر بالمدينة المنورة ، حتى جاءته الرميصاء بنت ملحان ومعها غلامها الصغير ، فقالت : يا رسول الله إني لا أجد ما أتحفك به غير ابني هذا فخذه ، فليخدمك ما شئت .

وهكذا تحوَّل أنس بن مالك ، أو أنيس كما كانوا ينادونه ، ابن العاشرة من عمره ، إلى بيت النبي ﷺ الذي هش للفتى الصغير وبش وضمه إلى أهله .

وعاش أنيس في كنف النبي ورعايته إلى أن لحق ﷺ بالرفيق الأعلى . ولن نتحدث اليوم عن أنس الذي غدا مرجعا للمسلمين يفزعون إليه كلما أشكل عليهم أمر من أمور دينهم ، ولكنا نريد أن نسمع منه شيئا عن عظمة القيادة الإسلامية التي عاش أنس في كنفها .

عن ثابت عن أنس قال : أتى عليّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان ، قال : فسلّم علينا فبعثني إلى حاجة ، فأبطأت على أمي فلما جئت قالت : ما حبسك؟ قلت : بعثني رسول الله ﷺ لحاجة قالت : ما حاجته؟ قلت : إنها سرّ. قالت : لا تحدثن بسر رسول الله ﷺ أحدا. قال أنس : والله لو حدثت به أحدا لحدثتك يا ثابت [1] .

هذا نموذج حيّ من تربية النبي ﷺ لأصحابه ـ كبارا وناشئة ، فهذا أنس خادمه الصغير ، جاءه رسول الله وهو يلعب مع الغلمان ، فكلفه بمهمة ، فلما قضاها لرسول الله ﷺ، سألته أمه عن تلك المهمة فأبى أن يفشي سرّ رسول الله ،فأثنت عليه وشجعته وقالت : لا تحدثنَّ بسر رسول الله ﷺ أحدا .

لقد كان المجتمع المسلم مجتمعا جادا ، يستلهم أفراده تعاليم نبيهم ﷺ الذي قال : « على كل مسلم صدقة » . قيل : أرأيت إن لم يجد؟ قال : « يعتمل بيده فينفع نفسه ويتصدق » .

---

(١) مسلم (٢٤٨٢/ ١٤٥) .

قال : قيل : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » . قال : قيل له : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يأمر بالمعروف أو الخير » . قال : أرأيت إن لم يفعل؟ قال : « يمسك عن الشر فإنها صدقة »[1] .

إرادة التغيير :

إن التقدم رغبة حضارية يحوزه من يملك تلك الرغبة ، والتعاليم الإسلامية أحاطت هذه الرغبة بالعناية والتربية ، أوجدتها ـ وعمقت جذورها ، ووسعت دائرتها حتى شملت جميع طبقات المجتمع ـ كباره وصغاره ، نسائه ورجاله ، فلم تعد ترى إنسانا عاطلا يجتر نفسه، أو ثرثارا يجتر أحاديث الناس ، أو مغتابا يفتري على الحق .

إن الحاكم الطاغية ، والبرامج الخبيثة ، والمناهج المستوردة ، وقتل الأبناء ، وتشريد الرجال ، وكل ما يخطر بالبال من العسف والجور والطغيان ، لا يستطيع أن يفتك بأمة ، أو يضمها إلى قافلة التخلف ، إذا لم ترتض الأمة لنفسها هذا المصير .

إن قلة عدد المسلمين في مكة ، وضعف إمكاناتهم المادية، ومحاصرتهم ومطاردتهم ، وتعذيبهم حتى الموت ، وملاحقتهم بالدعاية المضادة ، وأخيرا طردهم من بيوتهم وأملاكهم، كل ذلك لم يحل بينهم وبين التعبير عن أنفسهم بدولة كانت النموذج الأرفع لكل دول العالم ، لقد كانت إرادة التغيير والسمو أقوى من إرادة الظلام والتخلف كل ذلك يعتمد على بناء الفرد .

الصرح الحقيقي الذي يقوم عليه البناء الكبير .

ولهذا فقد ركز المربي الأول النبي محمد ﷺ على تربية أصحابه ، فحفظ عليهم استقامة وجدانهم ، وطهر ألسنتهم ، وجدية أوقاتهم .

سيدنا أبو بكر ﷺ يطلب منه عمر ﷺ أن يتزوج ابنته حفصة رضي الله عنها عندما ترملت ، ويسكت أبو بكر فلا يجيب بلا أو نعم ، وبعد أن تزوج رسول الله ﷺ حفصة ، قال سيدنا أبو بكر لعمر : لقد ذكرها رسول الله ﷺ ، وما كنت لأفشي سره ، ولولا ذلك لتزوجتها .

---

(١) مسلم (١٠٠٨/ ٥٥) .

ولم يكن أبو بكر عملاق الإسلام وحده من يحفظ سرّ المجلس ، بل الغلام الصغير أنس ، يحفظ السر كذلك ، وتشجعه والدته على هذا السلوك وتوصيه بألا يفشي سرّ رسول الله ﷺ .

شعار الجميع ، التوجيه التربوي النبوي : ليقل المسلم خيرا أو ليصمت .

يقول أنس : والله لقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لشيء صنعته : لِمَ صنعته ، ولا لشيء تركته : لِمَ تركته؟ هكذا فعل المربي الأول مع أصحابه ، وكذلك فليفعل المربون .

فالقائد الحكيم لا يعلم بالأوامر، ولا يعنف أو يزجر على الخطأ ، ولا ينتظر الفرصة ليشعر الآخرين بالنقص، فله من الحب الذي مدّ جسوره مع الآخرين: أهل بيته، إخوانه، رفاقه ، جيرانه ، أبنائه ، خدمه ، بحيث يتبارون جميعا لتلبية حاجاته ،فلم تعد المسألة مسألة كبير يأمر ، وصغير ينفذ ، بل ساحة حب يتبارى فيها الفرقاء جميعا في بذل ما يستطيعون .

هكذا **تكون القيادة ، وهذه أخلاقيات القائد ، وعلى الدعاة أن يتعلموا .**